باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب ففتحناه ترغيباً في المعارف وتباهياً فيهم وتشحيذاً للاذهان . ولكنّ العهدة في ما يدرج فيه على اصحابه فنحن براء منه كله . ولا ندوج ما خرج من موضوع المتنطف وراعي في الادراج وعدمه ما يأتي : (١) والمناظر والنظير مشتقان من اصل واحد فمناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق . فاذا كان كاشف اغلاط غيره عظيما كان المعترف باغلاطه اعظم (٣) خير الكلام ما قلّ ودلّ . فالمقالات الوافية مع الايجاز تستختار على المطوّلة

الشعر القصصي الجاهلي

استاذي الدكتور العلاّمة

قرأتُ البحث المستفيض الذي نُشر تباعاً في عددي ابريل ومايو وقد تفضّل به الاستاذ كاظم الدجيلي اعتراضاً على ما كتبتهُ في الشعر القصصي الجاهلي حينما نُشرت عبرية حافظ . اسألُ حضرتهُ قبول شكري لما استهلّ به مبحثهُ من تجميل ذكري . إني اعتبرُ ذلك الثناء ناطقاً بسعة حلمهِ اكثر منهُ دليلاً على اهليتي ، ولكني ، على كل حال ، سعيدة بهذه الكلمات المنشطة الآتية من بعيد . ويظهر لي ان العظمة العربية التي اندثر ما كان لها من صرح ومعقل على شواطئ دجلة والفرات ما برحت حية نامية نباهةً وخلائق عاليات في نفوس كرام الاهلين

على انهُ في اجزاء بحثهِ الاخرى قد وقع في ظلماً عادلاً . . . اذا جاز الجمع بين هاتين النقيضتين . لانهُ لم يكتفِ باثبات اسماء القصائد والملاحم والعلواءات المدوّنة في مجموعات الاشعار ودواوين العرب ، بل لامني تلميحاً لاني لم اقرأ القصائد التي نظمها عرب الجاهلية ومن عقبهم ولم يصل الينا ذكرها الاّ بالنقل والتواتر . كما انهُ لم يعنّ على ذلك القوم الجاهلي وجود منظومات قصصية حماسية في كتب خطية محفوظة في بعض المكاتب الخصوصية ولم يتسنّ لغير حضرتهِ ولافراد قلائل من الافاضل امثالهِ ، الوقوف عليها . اعترف باني مجرمة في ذلك ، ولكنها جريمة جبرية يرتكبها ملايين من العرب قهراً كما ترتكب ملايين البشر خطيئة آدم بنظام الوراثة . بيد اني مستعدة للتكفير عن جريمتي بالصورة الآتية :

ليؤكد في حضرتهُ ان تلك المنظومات من نوع الالياذة وحائزة مثلها لجميع الشروط التي يُعرَّف بها الشعر الذي يسميهِ الفرنجة (Epopée) فاتلقى تأكيدهُ باليقين واستشهد بتلك المنظومات بعد اليوم على عهدتهِ (١)

اما الجزء المحسوس من مقالهِ، وهو الذي ذكر فيهِ القصائد المنشورة في مجموعات العرب، فيسرني اني واياهُ على اتفاق تام في امرها الجوهري، والاختلاف بيننا انما يقوم على الاسم فقط: فحضرتهُ يطلق على هذه المنظومات اسم الشعر القصصي الحماسي، وانا اسمي بعضها شعراً وصفيًّا (كقصيدة بشر بن عوانة في مقتل الاسد، مثلاً، وقصيدة مزرّد بن ضرار السعدي في وصف شكتهِ)، واسمي الكثير الآخر شعراً حماسيًّا. حضرتهُ يقول ان من قرأ شعر اخيل في الالياذة ودرس أشعار عنترة العبسي ومهلهل ابن ربيعة وقرابتهِ البرّاق بن روحان يرى قرب المبدإ والمغزى بين أبطال العرب الثلاثة وبطل اليونان. ذلك مما لا ريب فيهِ. غير ان آخيل فردٌ واحد من امة يتكلم كلاماً حماسيًّا، وما كان كلٌّ من عنترة ومهلهل والبرّاق الاَّ فرداً واحداً من أُمةٍ يتكلم كلاماً حماسيًّا. أبطالنا كابطال الاغريق بل أشد شكيمة، وكلامهم كعزيمتهم ورجولتهم، تفوق بلاغتهُ بلاغة الالياذة، لكن ذلك لا يكفي لتكوين الشعر القصصي الحماسي الذي وضع لهُ اهل الغرب قواعد وشروطاً. فان تقعرّ شرط من تلك الشروط أو حرّف معنى احدى تلك القواعد خرجت المنظومة من حيز (الايبوبي) ودخلت دائرةً شعرية اخرى. ولذلك قلت يوم كتبتُ عن عمرية حافظ ان هذا النوع من الشعر (الحماسي) «عندنا منهُ كثير كشعر عنترة العبسي مثلاً»

غريب ان جميع من قرأتُ من المستشرقين يقول بتغيب الشعر القصصي الحماسي من العربية، ومنهم من يطنب في وصف جمالها واتساعها وفلسفة

(١) بكلامي عن «الايبوبي» عند الافرنج اعني تلك المنظومات القديمة الطويلة مثيلات الياذة هوميروس او التي نسجت على منوالها وقد ذكرت بعضها في سياق الكلام على عمرية حافظ. اما اليوم فقد سرت الفوضى الى كل شيء. وكما حدث اختلاط محتم بين الدرجات الاجتماعية والطبقات فقد حلّ روح ذلك الاختلاط ايضاً في صنوف الشعر والادب. فلاحم الافرنج في هذه العصور متغلب فيها العنصر الثاني فضلاً عن قصرها. واذا اتصل الباحثون الى اثبات عربية سفر ايوب قبل ان يبرز عبرية فلا حاجة بنا الى اكثر من هذا الاثر العظيم لتكون من اغنى الامم في الشعر القصصي الحماسي

قواعدها . وقع في يدي في العام الماضي مجموعة المعلقات مذيلة بشرح ألماني من وضع المستشرق وولف وكنتُ في مجلس حضرهُ احد كبار علماء المسلمين عندنا، فصرت اسألهُ عن معنى بعض الالفاظ غير المألوفة — وما اكثرها في المعلقات ! — فكان يهزّ رأسهُ احياناً ويبسم قائلاً « لا ادري ! » . فابحث اذ ذاك عن معنى الكلمة في الذيل الالماني واجدهُ . فاذا ما ذكرنا ان عرب الجاهلية كانوا اقرب العرب في جميع العصور الى نظم الملاحم ، وذكرنا ان المعلقات اول تلك الملاحم واهمها ، — عجبنا كيف ان امثال وولف هذا الذين وقفوا حياتهم على هذه الابحاث وتعصبوا للغة العربية واحبوها حبًّا يفوق حب اهلها لها ، ينكرون عليها شيئاً ثابتاً فيها . وكيف لا يدري هذا الرجل الذي ذيّل المعلقات بذاك الشرح الوافي في اي الصنوف الشعرية ينتظم صنف المعلقات ؟ ومن جهة اخرى كيف يقول معرّب الالياذة في مقدمته ! « فلا سبيل اذاً للزعم بوجود ملاحم للعرب الجاهلية على نحو ما يراد منها بعرف الافرنج » ؟ وهو الذي قال بعد التلميح الى ان حرب البسوس عند العرب تقابل الحرب الطروادية عند الاغريق ، وذكر ما تناقلتهُ العرب من منظوم بديع لوصف مواقعها ، قال : « اننا نجد تلك القطع غير ملتئمة لفقدان اللحمة بينها فهي كالحجارة المنحوتة قد احكم صنعها وبقيت ملقاة في أرضها غير مرصوصة بالبناء . ثم اذا نظرت الى أشهر الرجال والنساء فيها رأيتهم جميعهم شعراء فكليب يقول الشعر ومثلهُ زوجتهُ جليلة واخوهُ مهلهل . وكذلك مرّة شاعر وابنهُ جساس شاعر وكل ذي شأن في القصة من غريب وقريب شاعر كالحارث بن عباد وجحدر بن ضبيعه فجموع شعرهم أشبه من هذه الوجه بالشعر التمثيلي لان لكل حادثة شاعراً ينطق بها بخلاف شعر الملاحم كالالياذة اذ ترى هوميروس فيها ينطق بلسان الجميع »

نقلت هذه السطور عن مقدمة الالياذة لان حضرة الاستاذ استشهد غير مرة في مبحثه بالمقدمة المذكورة ، ولاني أرى فيها تعييناً حسناً لما نسميه عندنا قصصياً حماسيّاً . نقول شعر قصصي حماسي ولا تفطن ان أول دليل على تغيب هذا من عندنا هو عدم وجود اسم يدل عليه. كيف لم يهتم العرب الذين وضعوا للمعنى الواحد مئات من الاسماء احياناً ، بايجاد كلمة تدلُّ على خلاصة ما عندهم من

آداب ؟ فهم انهُ يوجد كلمة ملحمة ، وجمع ملحمة ملاحم . . . يا حنيف ! لو كنتُ شاعراً وعلمت ان احدى قصائدي ستصبح ، بل ستمسي ، يوماً ملحمةً من الملاحم ، لكنت كتبت براءة شرعية بيني وبين القوافي والاوزان بحذافيرها . ثم ان هذه الكلمة لا تؤدي معنى Epopée مطلقاً. واسم « حماسي » وحده أو « قصصي » وحده يعني نوعاً آخر من الشعر واسم قصصي حماسي طويل كالشواطىء. ولكني أتلقى بسرور كلمة « علواء » التي اشار بها حضرة البحاثة المفضال الاب انستاس ماري الكرملي ، فهي أتمّ ما استعمل الى الآن معنى واختصاراً ولفظاً ولكنها ان دلت على الشعر القصصي الحماسي فهي دليل على غيابهِ لندرة استعمالها فقداخبرني من قرأ اكثر كتاب الاغاني انهُ لم يرَ لها ذكراً فيهِ

ان غياب « الايبوبي الافرنجية » لا يحط من مقام لغتنا الان في العربية منظومات عاليات وشعراً حماسياً بديعاً (مما دعاه ناقل الالياذه « ملاحم قصيرة ») يتفق مع روح الامة ، ولن يصل شعراء الافرنج الى الاتيان بمثل ما يميزهُ من جزالة اللفظ وفخامة المبنى ورصف المعنى والبساطة البليغة ، بساطة الروح العربي وبلاغتهِ الخلابة . لان الغربي سيظل ابداً غربيا والعربي عربياً مهما قرّبت بين أحوالهما الخارجية اسبابُ العمران . ومن طبيعة العربي الهبوط الى خفايا نفسهِ وتحليل ما يجول بين ثنايها من عاطفة وميل ورغبة ومفخرة ، فاذا ما اقبل ينشد تغنى بما يهيجهُ من غضب وكيد وانتقام وحماسة وكرم ونخوة ، فكان مبدعاً شعر الحماسة والفخر . أو نظمَ المراثي أو زفر بما يعتر جنانهُ من وجد وحنين ، فكان مبدعاً شعر الغزل والنسيب ، وشعرهُ الوصفي ينتمي دائماً الى أحد هذين النوعين لان الطبيعة العربية لم تهتم قط بالاشياء النظرية المجردة ولم تنزع الاّ الى الاشياء المحسوسة الملموسة . فجاء شعرها الفريد صورة طبق جوهرها الوجداني ، وكان عندها الشعر القصصي الحماسي متفقاً مع سليقتها الخاصة يجري على منهجهِ الخاص خاضعاً لجمالهِ العربي الانيق الخاص. ولو قام أحد شعراء عصرنا يسرد تاريخ الامة العربية لجاءت هذه العلواء المجيدة اعظم وابدع الياذة عرفها تاريخ الادب عند جميع الشعوب

اثبتُ هذا الرأي ليس بصفتهِ رأياً حسناً ولكن بصفتهِ رأيي — كما كان

يقول موتنايو . وقد يكون الخطأ نصيبي والصواب في جانب غيري . ولكن الحقيقة كعبة جميع الباحثين فانما اياها ينشدون في كل نفي واثبات . ولو اردتُ اليوم كتابة ما دونتهُ بالامس لما ابدلتُ من الالفاظ الاساسية لفظةً واحدة . ولو لم يكن لذلك من سبب سوى بعث الشاعر البغدادي على كتابة تلك الصفحات المتعة النفيسة الاثنتي عشرة في معارضتي لكفى (مي)

اصمتْ وعِ

(بعث الينا حضرة صاحب السعادة الشاعر المشهور سليم بك عنحوري ناظم عقد القصيدة التالية يقول

« وقد يجمع الله الشتتين بعدما يظنان كل الظن الاَّ تلاقيا

« قد عدت اول امس من منفاي في الاناضول الذي دام من ١٠ نيسان (ابريل) سنة ١٩١٦ الى هذا الحين وهذا اول كتاب تخطهُ يدي بعد بلوغي الوطن وانا اسير فراشي لما نالني من وعكة السفر وبرحاء الغربة » فنهنئهُ بالسلامة والعود احمد ونرجو لهُ العمر المديد ليخدم بلادهُ بقلمٍ وواسع اختبارهِ)

النفس تجمح والشهوات تطلبُ والحسُّ يحمد والاشواق تنتهبُ
والعدل ساهٍ وعين الحكم مغضيةٌ والناس فوضى وحبل الامن مضطربُ
والقلب يرغب والاطماع مغريةٌ فالمال يُغصَبُ والاعراض تنتهبُ
هبْ ان دهرك اغضى والمليك قضى اين التعقل والتهذيب والادبُ
اين الجوار واين العهد من قدمٍ اين المروَّة اين الحلم يا غضبُ
وهل يفكر ذئبٌ جائعٌ ورأى فريسة بالذي يؤذي فتجتنبُ

* * *

اعمى التعصبُ ابصاراً معودةً ألاَّ ترى غير ما يُجنى ويُحتلبُ
قالوا (الارامن) قد قالوا وقد فعلوا ماذا ترى فعل الارواميُّ والعربُ
وللحماقة ادواءٌ منوعةٌ وسرُّ ادوائها الايذاء والعطبُ
لم تفتك الحرب فينا قدر ما فتكوا ويعمل الحيف ما لا تعمل النُّوَبُ
ما دار في خلد الاقوام يومئذٍ ان الزمان باهل البغي ينقلبُ

لو كان في امة الالمان تبصرةٌ وهم أولو العلم ما اغروا ولا كتبوا(١)
ولا اضاعوا زمام الدهر من يدهم بفتح حربٍ لها الافلاك تضطربُ
ولو وعوا لوعوا عهداً وما خدعوا عمداً ولارتدعوا قصداً وما وثبوا
عليك (غليوم) والآثام مثبتةٌ سخطٌ تصاحبهُ الارزاء والنوبُ
فانت بؤرة حرب رحت تضرمها والحرص مقتنعٌ ان الورى حطبُ
والمرء يحصد مما راح يبذرهُ وهل جنى حنظلاً من غرسهُ عنبُ
لا أيّد الله عرشاً انت عاهلهُ ولا رعى الله شعباً داؤهُ الكلَبُ
ما كنت احسب ان الارض حاويةٌ جنساً من الوحش لكن ما لهُ ذنبُ
ما قوض العدل اركاناً لمملكةٍ الا وقام لهُ من ظلمها سببُ
واللؤم ان مازجَ الارواح من قِدَمٍ هيهات تنجع فيهِ الرسلُ والكتبُ

دمشق ٢٨ مايو سليم عنحوري

جرّاح يخيط القلب

رجل عمره ٤٢ سنة مملوء صحة قوي العضل دخل مستشفى المناظر الجميلة في مدينة يونكير في الولايات المتحدة الساعة الثانية ونصفاً من ظهر ١٠ نوفمبر سنة ١٩١٨ وبهِ جرح في صدره وكان قد مضى عليهِ جريحاً اربع ساعات ونصف ساعات وقد نزف نزفاً غزيراً واول منظر من المشاهدة الاولى لفت انتباه الطبيب هو احتقان الراس والوجه والاطراف وعسر شديد في التنفس وكان معدل النبض ٨٠ وهو في حالة منتظمة الاّ ان حجمهُ وتوترهُ دون المعتاد . وقال الجريح انهُ اساء الى امراتهِ وهو سكران فطعنتهُ بمدية في صدرهِ احسّ انها نفذت الى قلبهِ فاغمي عليهِ مدة ثم انتبه ومشى والدم يسيل من جرحهِ الى اقرب مركز للبوليس . فاغمي عليهِ هناك ولا يتذكر تماماً مدة الاغماء . وقد اظهر الكشف انهُ مصاب بجرح طولهُ سنتيمتران على غضروف الضلع الخامس الايسر منحرفاً عن

(١) يشير هنا الى كتاب الله البروفسور لياغ الالماني عنوانه (لماذا يحارب الالمان) يفرضهم به على قرض المسيحيين عامة وتذليل العرب . وقد ترجم الى التركية ووزع على كبار مأموريها بامر حكومة الاتحاديين . وقد طالعه الناظم وتلاه على الجالية العربية (في فيكر) ويوجد منه الآن نسخة محفوظة عند مصطفى بك حيدر من اعيان بعلبك

الخط الاوسط الانسي ستة سنتيمترات . ولا يزال الدم يقطر منهُ فرأى الجراح بوتلر ان يسير غورَ الجرح ويقتفي اثرهُ بعملية استكشافية لعلَّه يتوصل بها الى توقيف النزف فاعد عدتهُ وباشر عملهُ بمساعدة الدكتور روث تحت تأثير بنج موضعي ولكنهُ ارغم بعد ان وسّع الجرح وشاهد تمزق غضروف الضلع الخامس الى استخدام البنج العام فاستأصل ١٢ سنتيمتراً من الضلع المذكور ولم تصب الرئة بضرر يذكر مع انهُ خرق البلورا ووجد فيها نحو مئة سنتيمتر مكعب من الدم الخاثر . ورأى الدم خارجاً من جرح في التامور طولهُ سنتيمتر فأطالهُ الى اربعة سنتيمترات ووجد في كيس التامور قليلاً من الدم ولكن النزف زاد زيادة هائلة عند ما فتح التامور وبعد قليل اتضح لهُ ان البطين الايسر مصاب بجرح طولهُ سنتيمتر ولم يشأ ان يتأكد غورهُ في عضلات القلب وكان الدم يتدفق من الجرح في حال انقباض القلب ولم يجد صعوبة في توقيفهِ بالضغط فدلهُ ذلك على ان النزف من جدار البطين الايسر غير ان لون الدم كان قاتماً وعند وصولهِ الى هذا الدور من العملية اسرع القلب بضرباتهِ وبتقليل من الصعوبة تمكن الجرّاح من خياطة جرح البطين بدرزتين بمخيط المصران وبعد ان عقد الدرزتين توقف النزف في الحال وخاط التامور خياطة مستمرة بمخيط المصران وعالج سائر اجزاء العملية حسب العادة المألوفة في سائر العمليات الجراحية

وقد تحمل المصاب العملية حسناً وفي ١١ نوفمبر كانت الحرارة ١٠٠ ونصف ومتقلبة والنفس من ١٨ الى ٣٢ والنبض من ٦٢ الى ٩٤ وقل احتقان الوجه والاطراف والحالة العمومية مرضية

وفي ١٢ منهُ كانت الحرارة من ١٠٠ الى ١٠٠ ونصف والنبض من ٨٠ الى ١٠٠ والتنفس من ٢٠ الى ٢٦ والحالة العمومية حسنة . وفي اليوم الرابع من العملية كانت حالة المصاب حسنة جداً وفي اليوم السادس عشر من اجراء العملية ترك المستشفى ومضى الى دار النقاهة في بورك فاقام هناك اربعين يوماً ثم عاد الى المستشفى فعاينهُ الدكتور بوتلر واعتبر انهُ شفي من جرحهِ ومر من النتيجة سروراً لم يعرف مقدارهُ وتأثيرهُ في النفس غير الطبيب المعالج

الدكتور شحاشيري